المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك عبدالعزيز

بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي للغة العربية (3)
الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي

بعنوان

اللغة العربية ثروة بلا حدود

د/ زياد بن علي بن حامد الحارثي

1435هـ

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم, الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم, وزينه بالعلم, وميزه عن غيره بالعقل, وكرمه بأنواع التكريم, والصلاة والسلام على هادي البشرية, ومعلم الإنسانية محمد إمام الفصحاء, وسيد البلغاء, وأشرف من نطق بالضاد, أفصح العرب لساناً, وأصفاهم جناناً, وأرشدهم عقلاً, وأوضحهم بياناً, وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.

لا شك أن اللغة العربية تتبوأ بمكانة عالية بين اللغات العالمية, لأنها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة, وهي الجامع بين أبناء الأمة العربية في بوتقة واحدة, لأنها تحمل استيعاباً للآداب والفنون الأخرى, ومن يملك المعرفة بها يدرك دقتها العظيمة في التعبير عن المعاني, وسعة مساحتها التعبيرية, وقدرتها الهائلة على توليد المعاني, والتوسع فيها, وتقويمها الفني حتى تصل إلى لغة الإعجاز, وقد عرف عظمتها من اطلع عليها, وسبر أغوارها, وذاق حلاوتها وطلاوتها, وهي ثروة عظيمة في شتى مجالات الحياة, وتراكم المعرفة بها يعادل الثروات المادية في باطن الأرض, وفوق ظهرها, وفي خزائن مصارفها, وهذا ديدن الدول المتقدمة في تقدير لغاتها, مع إيمانها بأن العلم والبحث العلمي قاطرة التقدم لأي مجتمع, ولغتنا العربية تعد من أعظم اللغات التي عرفها الإنسان, والمتأمل في التراث العربي يدرك أن العرب قد أحبوا لغتهم حباً عظيماً حقيقياً لا جدال فيه, وفتنوا بها افتتاناً شديداً, وبهرتهم قدرتها على الإعراب عن أدق خلجات النفوس, وهذا الحب دفع إلى البحث عن أصولها وخصائصها, وتأليف الكتب فيها, فحظيت بمؤلفات كثيرة, وما زالت ولا تزال تزدهر, وهي أشبه بالمعدن النفيس كلما حركته زاد بريقه ولمعانه, مع أنها تواجه بين الفينة والأخرى بعض التحديات من قبل قوى العولمة المختلفة، واليوم مرده إلى عوامل داخلية خاصة بالأمة العربية, وعوامل خارجية لها أغراضها السياسية, والدينية, والاقتصادية, وغيرها وفق خطط مقننة للنيل من كيان الأمة التي شرفها الله بالإسلام وبسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام, ومن هنا نشأت عندي الرغبة في أن أدلو بدلوي في البحوث اللغوية التي تخدم اللغة العربية وتطلعاتها, حتى تكون لغة المستقبل كما كانت لغة التألق في شتى المجالات في تاريخ الأمة, لذا تناول هذا البحث - اللغة العربية ثروة بلا حدود - الثروات الثقافية في شتى مجالاتها, والاجتماعية, والاقتصادية, والتقنية, مستخدماً المنهج الوصفي, ومسلطاً الضوء على استثمار اللغة في جميع فنونها, راجياً الله أن يسهم هذا البحث في إضفاء لمحة في سلسلة البحوث المعنية بهذا المؤتمر.

والله ولي التوفيق..

د/ زياد الحارثي

مدخل:

لقد اختار الله لكتابه أفصح اللغات, فقال في كتابه: (إنا جعلناه قرآناً عربياً)[1], وقال سبحانه: (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين, بلسان عربي مبين)[2], وقوله: (وقرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون)[3].

إنها تشريفات من الله سبحانه وتعالى للغة العربية, ومن ذلك اكتسبت القداسة, وقد حفظها الله بحفظ كتابه فقال: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[4], وهي باقية ببقاء كتاب الله عز وجل, وقد اختارها الله لكتابه لما تمتاز به من قدرة على الاشتقاق والنحت والتصرف, مما يسهل على الرسول تبليغ رسالته إلى الناس كافة, بلغة مفهومة رقراقة تصل إلى قلوب الناس بسهولة ويسر.

ورسولنا ﷺ شجع على تعلمها فقال: (تعلموا العربية وعلموها الناس), وقال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه), وقيل للرسول ﷺ: ما الجمال في الرجل؟ قال: (فصاحة لسانه)[5].

وأدرك السلف الصالح أن عنايتهم باللغة العربية هي السبيل إلى فهم الدين الإسلامي, وفهم القرآن الكريم, والوقوف على مراميه, وقوة إعجازه, يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تفقهوا في العربية فإنها تزيد في العقل وتثبت المروءة"[6].

ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية على مكانة اللغة العربية وأهميتها بقوله: "كنا نعتبر اللغة العربية من العلوم الشرعية, والعلوم الشرعية نوعان: (علوم مقاصد, وعلوم وسائل) فاللغة العربية من علوم الوسائل ولذلك سماها العلوم الإلهية فنتعبد لله سبحانه وتعالى بتعلمها"[7], وقد عرف علماء الغرب سحر اللغة العربية, يقول المستشرق الفرنسي رينان: "من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرُّحل, تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها, ودقة معانيها, وحسن نظام مبانيها, ولم يعرف لها في كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة, ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى ولا نعرف شبيهاً بهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة"[8], أما العالم الفراد نعوم تشومسكي الذي ذاع صيته في كافة المعمورة لما أنجزه من بحوث علمية حول اللغة وطريقة اكتسابها فإنه أقر بالحق العربي, وبمكانة اللغة العربية, وكذلك المستشرق الأمريكي وليم ورل الذي قال: "إن اللغة العربية من اللين والمرونة ما يمكنانها من التكيف وفق مقتضيات العصر, وهي لم تتقهقر فيما مضى أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها, وهي ستحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي"[9], وهذه آراء الغرب حول اللغة العربية التي كان من المفترض أن يهتم بها أبناؤها, وعدم التشدق بلغات أخرى غير لغتهم, فهي الأجدر والأقوى والأثرى بين لغات العالم, مع أني لا أعارض تعلم اللغات الأخرى على أن تكون لغات ثانوية وليست أساسية في حياتهم.

وإن من الواجب علينا أن نسلط الضوء على الآليات التي تسهم في ازدهار اللغة العربية, في المدارس والجامعات, واعتماد اللغة الفصحى أساس الخطاب في قاعات الدروس وفي المعاهد والجامعات, والمؤتمرات, وتعريب التعليم الجامعي, وسن قوانين للحد من استعمال اللغة العامية في فضائيات الإعلام المرئية والمسموعة, باعتبار أن وسائل الإعلام هي المسئولة عن تفشي اللغة العامية, ويجب ألا ننسى حقيقة مهمة وهي أن اللغة العربية لغة التواصل والتعبير مع الآخرين, إذ علينا أن نحبب المتعلمين باللغة الأم عن طريق تخديمها تربوياً ولغوياً في مجالات الحياة العلمية والعملية, مما يحقق الأمن اللغوي لأبنائها, وأن نحفز المتعلمين لها بجوائز مجزية حتى تواكب اللغات الأخرى, وتصل إلى درجة الكمال الأولي, وكذلك الغرس في نفوس النشء محبة اللغة العربية وربطها بالدين القويم.

وإذا كانت العربية قديماً تعكس ما وصل إليه علماؤنا الأجلاء من تقدم علمي في شتى المجالات, فإن ذلك دليل على مرونتها الفائقة من خلال التطور الذي أصاب مفرداتها في العصر الحاضر, وقد شهدت العصور المتتالية عبقرية علماء اللغة الذين عرفوا كيفية تطويعها, وسبر أغوارها, فجعلوا منها لغة علم ومعرفة, وصعدوا بها إلى عنان السماء, واستخدموها في شتى مجالاتهم إلى يومنا هذا, وحققت ثروات كثيرة ومتعددة.

أولاً: الثروات الثقافية:

إن اللغة العربية قادرة على تحديات العالم, ويجب أن تقوم على أسس منها: ضرورة العودة بها إلى أصالتها الثقافية الأولى, فكل بناء جديد يجب أن يؤسس على أصل متين وثابت, وكذلك إثبات قدرة اللغة العربية على التفاعل مع التجربة العلمية العالمية الحديثة واستيعابها للحضارة الغربية قديماً وحديثاً, وكذلك تفعيلها من أجل التعبير عن تطلعات وآمال الشعوب العربية بتحقيق وحدة قومية لها خصائصها ومقوماتها المتميزة, وعلى الحكومات العربية العناية بالمثقفين, والأدباء, والشعراء, ورجال الفكر, حتى تخرج اللغة بثوبها البهي, وتجني بعد ذلك ثرواتها الثقافية المتنوعة من نبوغ شعراء وأدباء ينافسون أدباء العالم, ويصدرون الكتب والدواوين الشعرية, وينعكس الثراء الثقافي على المتعلمين للغة العربية لنخرج بجيل يتميز بالنبوغ والإبداع في كافة مجالات الثقافة وفنونها. والتفكير في مستقبل اللغة قضية بالغة الأهمية في الفكر المعاصر, وله صلة وثيقة بسيادة الأمة العربية على ثقافتها وفكرها, وعلى حاضرها ومستقبلها, وقد تفاعلت الثقافة العربية مع ثقافات العالم المختلفة عبر وسائل الاتصال الحديثة, ونما في ذات المستخدم العربي إثبات ذاته, من خلال لغته العالمية, وإقبال البعض على تعلمها, وهذا ما تشهد به المواقع والشبكات العالمية للتواصل.

ومع مرور الزمن على اللغة العربية فإنها قوية راسخة الأصول، قوية الكيان، وكانت رافداً للغة الإنجليزية في نهضتها الأولى في العصور الوسطى وهذا ما شهد به مؤلف كتاب اللغات (ماريوبل)[10].

ثانياً: الثروات الاجتماعية:

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين, فوحد العرب في دينها وفي لغتها, وحققت اللغة العربية المساواة الاجتماعية في شتى أرجاء الأرض, وأصبح المجتمع العربي أسرة واحدة, ومن تعلم اللغة العربية فقد دخل في هذه الوحدة العظيمة, وأصبح لسان شعرائهم وأدبائهم وقادة فكرهم واحد, وأقرب دليل على ذلك وجودنا في هذا المؤتمر الميمون، لأن الوحدة العربية هي الثروة الثمينة من اللغة العربية.

وتعتبر اللغة العربية لغة عالمية من أقدس وأوسع لغات الأديان, لكونها غنية بالمفردات والمترادفات ووجود الألفاظ المضادة أو التشبيه والمجاز واشتقاق الكلمات والفصاحة والبلاغة[11], ويرى البعض أن اللغة العربية لغة تواصل بين المجتمع فقط، ولكنها تحقق نقل معلومات وتبادل أفكار وتعزيز أدوار, وتحقيق منافع وثروات اجتماعية, لكن الواقع أن اللغة هي أكبر من مجرد آلية تواصلية، حيث تحمل في ذاتها مقومات الوجود الإنساني وتميزه [12], مما يجعل الدفاع عن اللغة وحمايتها دفاعاً عن الوجود الإنساني.

وترتبط حياة اللغات الاجتماعية بحمايتها, حيث أضحى احتكاك اللغات وتصادمها مطروحاً بتحدياته ومفارقاته, فعلى الصعيد الدولي تعيش وضعاً خاصاً يفرض أحادية لغوية مهيمنة, وعلى الصعيد الوطني تعدداً لغوياً متوازناً أحياناً ومختلاً أحياناً أخرى, فلغات كثيرة قد عطلت ولغات أخرى اندثرت بسبب تعطل وظائفها, أو حصل تحول من لسان وطني إلى لسان أجنبي[13], واللغة العربية وجدت نفسها محاصرة داخل الوطن العربي - رغم أنها سادس لغات العالم – بلغات أجنبية يُنقل من خلالها العلم والثقافة وجانب من مواد التدريس, وبها تتكلم وسائط الإعلام بمعناها الواسع, وتقنيات التواصل بمختلف أنواعها وأشكالها[14], أضف إلى ذلك تدني مستوى الطلاب في مواد اللغة العربية وهذا تحد آخر, فضلاً عن ضرورة إعادة النظر في مناهجها وطرائق تدريسها وربطها بالتقنيات الحديثة[15], ولكن الأمل لم ينقطع فما زال هناك من يدافع ويناضل عنها بقدر استطاعته.

ثالثاً: الثروات الاقتصادية:

إن اللغة العربية ثروة اقتصادية لا مثيل لها, وأن تراكم المعرفة بها يعادل الثروة المادية في باطن الأرض أو على ظهرها وفي خزائن مصارفها, وهذا هو الأساس الذي تعتمد عليه الدول المتقدمة التي تعرف أن العلم والبحث العلمي قاطرة التقدم لأي مجتمع, وبناءً على ذلك تضع الدول

خططها بعيدة المدى على استثمار نتائج التعليم في كثير من المجالات التي يعد الاستثمار بها طويل الأجل فتتعاظم فوائده كلما أحسنت المؤسسات التعليمية والثقافية إدارته واستشراف أهميته, وهذا يقاس على جميع لغات العالم.

ويمكن للغة العربية شأنها شأن اللغات الحضارية, تحسين الاقتصاد من خلال ما يسمى بالتصدير اللغوي للبرامج والتقنيات التي تعالج منظومتها, وأن توجيه رأس المال نحو الاستثمار في مشاريع معالجة اللغة العربية له عائد كبير على المستثمر نفسه, وعلى اللغة أيضاً.

واللغة العربية لديها قابلية الاستثمار بها, نظراً لاتساع سوقها في المنطقة العربية, كما أن تفاعل الثقافة العربية والإسلامية مع ثقافات العالم يزداد ويتنامى، ومن العبث أن نغفل أهمية العامل الاقتصادي في النهوض باللغة العربية وانتشارها, والإقبال عليها؛ لأن ما يشغل العالم كله في المقام الأول المشاكل الاقتصادية وليس هناك مجتمع يريد النهوض دون أن يحسّن اقتصاده.

واللغة العربية مجال رحب واسع الأرجاء, يمكن الاستثمار فيه بسهولة ويسر يقول الدكتور كمال بشر: "إن جمود اللغة وتخلفها ونموها وازدهارها يرجع أولاً وأخيراً إلى أهلها, وأن ما يجري في العالم من أفكار وثقافات ومعارف جديدة ومتنامية, فإن كان لهم من ذلك كله حظ موفور, انعكس أثره على اللغة, وإن قل هذا النصيب بقيت اللغة على حالها"[16].

رابعاً: الثروات التقنية:

ما يشهده العالم من تحول في مجال التقنية الحديثة للغة العربية له صلة بذلك, فكثير من تقنيات العالم تصل إلى العرب في وقتها وزمانها, ومن هنا جاء الاستثمار التقني في اللغة العربية بالترجمة, وأصبحت أجهزة العالم المتقدمة تُستخدم باللغة العربية, وهذا دليل على مرونتها وقدرتها على مواجهة التحديات العالمية في أي زمان.

وللتقنية الحديثة أثر كبير على اللغة العربية, فتأخذها من يدها وتركض بها في دهاليز الاستخدام اللغوي المعوج, وهذا له أسباب، منها سرعة العمل في النشاط التقني, والنقل الحرفي للمفردات والتعبيرات الأجنبية, وضعف تدقيق الأساليب, وهو ما يعرف اليوم بـ (مراقبة الجودة), وفي الوقت الذي تحاول التقنية أن تقدم موادها بلغة رصينة إلا أن الكثير مما تستخدمه ركيك أسلوبياً, وغالباً ما يكون تعبيراً أجنبياً بحروف عربية, وكذلك ظهرت الترجمة الصوتية للأفلام باللهجات المحلية وهو ما يعرف بـ (الدبلجة) مقابل تاريخ طويل في الدول العربية من الترجمة إلى العربية الفصيحة, والترجمة باللهجات العامية أو المحلية يرجع إلى الكسل الذي تتوقعه هذه الشركات والقنوات لأن القراءة الصحيحة تحتاج إلى جهد ووقت, كل ذلك بدأ بمحاصرة اللغة العربية من جهة, واللغات الأجنبية من جهة أخرى, مع أن اللغة العربية قادرة على أكثر من ذلك, ولكن السبب الأكبر يكمن في أهلها, ومدى اهتمامهم بها, فاللغة العربية بحاجة إلى استثمار تقني بها

وتخطيط لغوي بسبب وضعها المتفرد, ذلك أن اللغة المحكية في الحياة اليومية ليست تلك المكتوبة في الصحف والكتب والبحوث العلمية, لذا لا بد من التخطيط الصحيح في استخدام اللغة المحكية والمكتوبة على حد سواء. واللغة العربية لديها قدرة ومرونة لاستيعاب التقنيات المختلفة, لتعدد خصائصها, وتفردها, مما يجعلها حقلاً خصباً للدراسات التنظيرية اللغوية بصفة عامة, ويضمن رواجاً في حركة البيع والشراء عند الطلب, وتنامياً في وسائل العرض.

الخاتمة

إن اللغة العربية كائن حي يعتريه ما يعتري اللغات الأخرى, وتخضع لتقلبات الزمن نتيجة للتطورات التي تقع, والمستجدات التي تطرأ, وحياة اللغة من حياة أبنائها, وهي تقوى وتضعف حين يقوون أو يضعفون,وهي فاعل في الحضارة, وعامل مؤثر في النهضة, فكلما قامت حضارة ونما فرعها وأينعت شجرتها وأثمرت, ازدهرت اللغة واغتنت, وامتد إشعاعها وانتشر, وتطرد هذه القاعدة في كل زمان, وتسير على جميع الحضارات المتعاقبة, واللغات التي عرفها الإنسان, ومن هنا جاء الاستثمار في اللغة العربية ليكون له مجالات متعددة، وثروات قيمة، كان من أهمها الثروات الثقافية, والثروات الاجتماعية, والثروات الاقتصادية, والثروات التقنية, فحاولت أن أظهر بعض هذه الثروات في هذه الصفحات اليسيرة.

وكم نحن بحاجة إلى مواكبة العالم الحديث محافظين على لغتنا العربية الأصيلة, وكم نحن بحاجة أيضاً إلى من يتحمّل المسؤولية ليدافع عن اللغة بشتى المجالات، فالمتربصون بها كثر, ويجب أن تُحاط بسياج متين ورصين مع أنها محفوظة من رب العالمين, ولكن لا بد أن نعطيها قيمتها وقدرها ، حتى نفاخر بها بين لغات العالم وتحدياته.

وفي الختام أشكر الله سبحانه وتعالى أن يسر لي أن أشارك بهذا العمل البسيط في خدمة اللغة العربية, ولا أدعي الكمال, فكل عمل يعتريه النقص والنسيان, إلا كتاب الله وسنة رسوله ❐, فإن وفقت فمن الله وحده, وإن كانت الأخرى فحسبي أني بشر أصيب وأخطئ وما توفيقي إلا بالله.

د/ زياد الحارثي

فهرس المصادر والمراجع

(1) سورة الزخرف: الآية رقم: (3).

(2) سورة الشعراء: الآية رقم: (195).

(3) سورة الزمر: الآية رقم: (28).

(4) سورة الحجر: الآية رقم: (9).

(5) رواه الحاكم في المستدرك، ط بيروت, دار المعرفة ج/4, ص(87).

(6) د/ كمال بشر: اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم. ط دار غريب, القاهرة عام 1999م, ص(54).

(7) د/ أنور الجندي: اللغة العربية بين حماتها وخصومها., مطبعة الرسالة, بيروت, دون طبعة, ص(25).

(8) محمود السيد: التمكين للغة العربية: آفاق وحلول, بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق, ج/2, مجلد 83, , 1429هـ، ص(309).

(9) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(10) الرافعي: تاريخ آداب العرب, عام 1974م.

(11) عبد العزيز التويجري: مشروع النهوض باللغة العربية.. مشروع أمة, مقال منشور في جريدة الحياة في لندن, بتاريخ 2008/11/18م.

(12) محمود أحمد السيد: نقلاً عن عبد السلام المسندي, اللسانيات من خلال النصوص, ط2, الدار التونسية للنشر, تونس، ص(17).

(13) سعد أحمد بيومي: أم اللغات دراسة خصائص اللغة العربية, مكتبة الآداب, ط1, القاهرة, 2002م, ص(102).

(14) عبد الرزاق السعدي: مقومات العالمية في اللغة العربية وتحدياتها في عصر العولمة, بحث منشور في مجلة آفاق الثقافة والتراث, مركز جمعة الماجد, العدد 63, شوال 1429هـ, ص(47).

(15) طه حسين الدليمي و سعاد الوائلي: الطرائق العلمية في تدريس اللغة العربية, دار الشرق للنشر والتوزيع, ط 1, الأردن, 2003م, ص(3).

(16) د/ كمال بشر: اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم, ط دار غريب, القاهرة, 1999م, ص(54).